دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	من أساليب التربية بالقرآن التربية بالآيات
المصدر:	رسالة الخليج العربي
الناشر:	مكتب التربية العربي لدول الخليج
المؤلف الرئيسي:	النحلاوي، عبدالرحمن
المجلد/العدد:	س 10 , ع 32
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1990
الصفحات:	35 - 56
رقم MD:	12588
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EduSearch
مواضيع:	التعليم الإسلامي، التربية الإسلامية، المباحث القرآنية، الأخلاق الإسلامية، الأساليب التربوية، الصحوة الإسلامية، الاعجاز اللغوي، معاني القرآن، علم النفس التربوي، العقل، التفكير الكمي، الحواس، توحيد الالوهية، الاعجاز العلمي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/12588

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

من أساليب التربية بالقرآن
التربية بالآيات

إعـداد

الأستاذ عبد الرحمن النحلاوي

ملخـص

في سبيل الوصول إلى **رؤية تربوية لأسلوب القرآن الكريم** من خلال عرض آيات الله في آفاق الكون وفي أنفسنا ، يحدد الباحث أهم المصطلحات ، من خلال وجهة نظر تربوية إسلامية ، كالتعلم بعناصره الأساسية : الموقف ، والكائن ، والدافع ، وكالتربية وطرق التعلم وأساليب التربية . ثم يحدد معنى الآيات اللغوي والقرآني ، ثم يستعرض نموذجا من العرض القرآني لخمس (آيات) كونية محاولا اكتشاف سر تأثير القرآن وإيقاظه الفكر والمشاعر . ثم يعرض **تحليلا نفسيا تربويا لأسلوب (التربية بالآيات)** مبيناً ما فيه من (استدلال) و (استبصار) مرورا باستشعار المشكلة ، فتحديد جوانبها ، فحلها ، فتعميم الحل . ثم يعرض أثر هذا الأسلوب القرآني في تربية العقل ، والحواس ، والمحاكمة أو البرهان ، وتربية الإيمان بالسنن الكونية والقوانين الثابتة ، وتربية التفكير الكمي ، والبحث عن السنن والقوانين الاجتماعية في أخبار الأمم السابقة مع أنبيائهم . أما تصنيف طرق هذا الأسلوب التربوي أو مظاهره أو أشكال الاستدلال بالآيات ؛ فلن يتسع له المقام في حدود هذا المقال .

من أساليب التربية بالقرآن

التربية بالآيات

إعـداد

الأستاذ عبد الرحمن النحلاوي*

كلية العلوم الاجتماعية

جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية

مقدمـة :

في خضم هذه **الصحوة الإسلامية** كثرت البحوث والكتب والندوات حول آيات الله في آفاق الكون وفي الإنسان وما تحويه من إعجاز علمي . وتعددت المقاصد ، فكان بعض الباحثين يرمي إلى إظهار سبق القرآن إلى كثير من الحقائق العلمية التي اكتشفت مؤخرا عن الكون والإنسان . وبعضهم الآخر يهدف إلى ترقيق القلوب ، وتجنيد الأفكار وتوجيه العواطف وجهة ربانية واحدة ، لتصدر الأمة عن رأي واحد في تنظيم أمورها وحل مشكلاتها . ويرى بعضهم في هذه البحوث وسيلة ناجحة في اجتذاب قلوب المنصفين من العلماء والمفكرين إلى الدخول في الإسلام وحمل راية الكفاح الفكري والعلمي مع الأمة الإسلامية صادرين عن قناعة علمية وحماسة ذاتية خالصة من شوائب الرياء والمصلحة .

---

* عبد الرحمن النحلاوي ، الأستاذ المساعد في كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . تخرج من كلية الآداب بجامعة دمشق ــ فرع الفلسفة . ثم حصل على دبلوم في التربية ، وانتدب أستاذا محاضرا لتدريس مادة : « طرق تدريس الدين » لطلاب دبلوم التربية ، المتخرجين من كلية الشريعة بدمشق ؛ فكان أول من أفرد بالتأليف كتاباً لهذه المادة . ثم درّس التربية وعلم النفس في الكليات العلمية بالرياض ، معاراً لأربع سنوات ؛ ثم عاد إلى دمشق . وفي عام ١٣٩٥هـ ، تعاقدت معه جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ؛ واختص أخيرا بالتدريس والبحث والتأليف في أصول التربية الإسلامية وأعلامها ، ونظمها وأساليبها . ولما جاوز الستين اعتزل التدريس ، وانقطع للبحث والتأليف ، ومن أشهر مؤلفاته : « أصول التربية الإسلامية وأساليبها » ، « التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة » ، وسلسلة : « أعلام التربية في تاريخ الإسلام » . وهذا البحث نواة لسلسلة أخرى في : « أساليب التربية الإسلامية » .

ولكن المتتبع الدارس لهذه الآيات كما عرضت في القرآن الكريم يجد أن الله الذي ميز الإنسان بالقدرة على الكتابة والتعلم وأمره أن يقرأ ﴿**اقرأ باسمِ رَبِّكَ الّذِي خلَق**﴾[1] ، جعل في آفاق الكون ووقائعه الكبرى (آيات) أي دلائل ، لو تأملها الإنسان كما علمه القرآن ، لتوصل إلى الحق في مسألة الوحي والكون ، ووجود الإنسان ومصيره والغاية من ذلك الوجود ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾[2] . كما جعل فيها وسيلة للهداية[3] ولتربية التفكير السليم[4] عند الإنسان ولتربية الحواس على التبصر[5] والاستبصار في الوصول إلى الحق ، ولتربية الإنسان على العقيدة السليمة والسلوك القويم ، المستمد من وحي الله وشريعته . **ولما كانت الحاجة إلى تحقيق هذه الأمور بأسلوب تربوي أصيل ، حاجة ملحة ، فإن من طموحات هذا البحث طرح رؤية تربوية ، لأسلوب القرآن في عرضه للآيات الكونية والتاريخية ، مع الإشارة إلى ما يقابل ذلك أو يشبهه من الأساليب التربوية القائمة** بقصد التقريب إلى الأفهام لا بقصد المقارنة ، وذلك في محاولة للجمع بين الأصالة الإسلامية والرصانة المنهجية والابداع ...

* * *

أهمية البحث :

يمثل هذا البحث حلقة أساسية من (التربية الإسلامية) باعتبار أنه يكشف النقاب عن **أهم الأساليب التربوية الإسلامية** ، ويضع بين أيدي المربين مفتاحا لعقول الناشئين وقلوبهم ، وهم يدرسون القرآن الكريم ، وعقيدة التوحيد ، **بدلا من تلقينهم هاتين المادتين تلقينا ببغائيا ، كما يلاحظ في الأسلوب التقليدي لتدريسهما** . ولا يستغني عنه مدرسو العلوم الكونية للتوفيق بين معطياتها وبين العقيدة الصحيحة بأسلوب فكري سليم ، موضوعي ، منهجي ، يصدر عن الفطرة السليمة ، وينتهي بالإنسان إلى الاستمتاع باليقين والوصول إلى الحق ، بدلاً من التلجلج في متاهات الشك والقلق الفكري المدمر .

* * *

مشـكلة البحـث :

من الثابت أن رسول الله ﷺ « **كان خلقه القرآن** »[٦] ، وكان بدعائه وسلوكه **يتأوّل القرآن**[٧] (يطبّق معانيه) ويأمر أصحابه بذلك ، **وكان الصحابة لا يجاوزون قراءة السورة حتى يفهموا معانيها ويعملوا بما فيها** . وهكذا ربى القرآن نفس الرسول ﷺ ، وأصحابه ومن تبعهم بكل ما في الكلمة من معنى ، **فَعَدَّلَ سلوكهم ، وصحح مفاهيمهم وحدد مثلهم العليا** ، وقادهم بدافع من أعماق نفوسهم ، حتى فتحوا أكبر الممالك وغيروا نظام الحياة فيها ، وقادوا شعوب العالم ، وأخذوا بزمام الثقافة العالمية ، ورفعوا راية الحضارة الإسلامية . وكل هذا يدفع الباحث إلى أن يسأل :

ما الأساليب التربوية في القرآن الكريم ؟ ما الأساليب التي عدلت سلوك هؤلاء الفاتحين حتى فعلوا هذه الأعاجيب ، وجرت على أيديهم هذه المعجزة التاريخية !؟

وسيجد الباحث ــ عندما يستقرئ القرآن ونصوصه ــ أن **أول أسلوب** يجذب النظر ، وهو من أكثر أساليب القرآن تكرارا وأشدها وضوحا ، وتصريحا به في كثير من السور والنصوص القرآنية ، هو : « **التربية بالآيات** » ومن ثم يجد الباحث نفسه أمام الأسئلة الفرعية التالية :

١ ــ ما معنى الآيات في الاستعمال القرآني واللغوي ؟

٢ ــ ما المدلول التربوي لهذا الأسلوب ؟

٣ ــ ما الآثار التربوية لهذا الأسلوب ؟ (**أو ماذا يربي في الإنسان** ؟) :

(أ) ما أثره في تربية العقل ؟ في سعة الثقافة ؟ في تربية الاستدلال والمحاكمة ؟

(ب) ما أثره في تربية الحواس ؟ (**لأي شيء يوظف الحواس** ؟) .

(جـ) ما أثره في تربية التفكير العلمي ؟ (في طلب البرهان ؟ في التفكير الكمي ؟ ، في البحث عن السنن والقوانين ؟) .

(د) ما أثره في تربية الأخلاق العلمية ؟ (في طلب الحق والخضوع له ، في الصبر ...) .

٤ ــ ما أهم أهداف هذا الأسلوب ، كما تؤخذ من القرآن ؟

(أ) ما أهم الأهداف الاعتقادية ــ السلوكية وما أثرها في تربية الشخصية ؟

(ب) ما أهم الأهداف الوجدانية ..؟ الخ .. ؟

٥ ــ ما أنواع التربية بالآيات ؟ وكيف يتم تصنيفها ؟

* * *

تحديد أهم المصطلحات :

مما لا شك فيه أن حب العلم والتعلم وطلب الحقيقة أمر فطري فطر الله عليه جميع البشر ، وقد اهتم به المفكرون في هذا العصر ، وحللوا عملية التعلم ودوافعها وعناصرها ، واكتشفوا أساليبها ، ولا بد من استعراض لتعاريفهم ومصطلحاتهم وموقف التربية الإسلامية منها قبل استخدامها في هذا البحث .

عرف « **التعلم** » أحد كبار الباحثين في علم النفس التربوي بأنه : « **تعديل السلوك عن طريق كسب الخبرة** »[٨] ورأى أن التعديل إنما يحدث أثناء إشباع الدوافع وبلوغ الأهداف وبنى على هذا أنه يمكن اعتبار التعلم « **عملية تكيف مع المواقف الجديدة** » وأن هذا التكيف يحتاج إلى تمرين أي إلى « مجهودات المتعلم المتكررة لكي يستجيب للموقف الجديد استجابة ناجحة »[٩] ، ومن هذا التعريف يمكن تحديد العناصر المكونة لعملية التعلم على النحو التالي :

١ ــ مواقف جديدة تستدعي استجابات جديدة أو سلوكا مناسبا .

٢ ــ كائن لم يألف في الماضي هذه المواقف ولا يحسن الاستجابة لها .

٣ ــ محاولات وتمارين وجهود متكررة ، **لاتقان سلوك جديد** يتفق مع المواقف الجديدة .

٤ ــ دوافع وأهداف تكمن داخل الكائن ، **تحرضه** على بذل الجهد وتكرار المحاولة .

٥ ــ **نماذج معروضة للسلوك المناسب** المطلوب للتوافق مع المواقف الجديدة .

٦ ــ خبرات تكتسب عندما تتم عملية التعلم ، بحيث يمكن تكرارها والاستفادة منها في مواقف مشابهة ، أي تطبيقها ...

على أن هذه العناصر يختلف مفهومها باختلاف الكائن ، والبيئة الاجتماعية والثقافة والأهداف والمثل العليا ، **ولذلك يجب تحديد هذا المفهوم** في التربية الإسلامية قبل الدخول في تفاصيل البحث :

١ ــ **فالموقف في التربية الإسلامية ، ليس مجرد مجموعة من المؤثرات المادية التي تحيط بكل من المربّي والمتربي** ، بل إنه فوق هذا وقبل ذلك كله ، يخضع لمؤثرات معنوية ودوافع وأهداف ومشاعر داخلية تنبثق من ذات الإنسان وتتفاعل مع المؤثرات الخارجية بقصد إخضاعها وتصريفها وفقا لمشاعره وأهدافه ومثله العليا ، فالإنسان عنصر إيجابي يؤثر في كل عناصر الموقف ، كما يتأثر بها .

٢ ــ والكائن المتعلم هو الإنسان ، ولا يدخل في شموله حيوان ولا نبات . انه الإنسان العاقل سليم الفطرة ، القادر على تزكية نفسه ، المستعد بفطرته للتمييز بين الخير والشر ، وعلى اختيار أحدهما وترجيحه ، وعلى توجيه سلوكه وفقا لهذا الاختيار .

٣ ــ والدوافع تشمل ما تشير إليه هذه الكلمة من دوافع فطرية كحب الخير ﴿**وَإِنَّه لِحُبِّ الخيرِ لَشَديد**﴾[١٠] ، وحب الحياة ﴿**ولتجدنَّهم أحرص الناس على حياة**﴾[١١] ، وكراهية الموت ﴿**قل إن الموت الذي تفرّون منه فإنه ملاقيكم**﴾[١٢] ، وحب البقاء ﴿**يودُّ أحدُهُمْ لو يُعمَّرُ ألفَ سَنَة**﴾[١٣] ، والرفاهية أو تحسين الحياة ، وحب الحقيقة والسعي وراءها ، وطلب الرزق ، وحب النساء والبنين ﴿**زُيِّن للناس حُبُّ الشَّهوات من النساء والبنين**﴾[١٤] ، وحب الله ﴿**والذين آمنوا أشدُّ حُبّاً لله**﴾[١٥] ، والشعور بخشيته أمام مظاهر قدرته كالأمواج العاتية ﴿**وإذا غشيهم موج كالظلل دَعَوُا الله**﴾[١٦] ، والزلازل المدمرة ، والأعاصير ، والبراكين ، والفيضانات ، والأوبئة ؛ كما تشمل الدوافع المكتسبة ، كحب العبادة ، والأصدقاء الصالحين ، والجنة ، وعمل الخير .. وكراهية الشر والشريرين ، والخوف من غضب الله وعذابه .. الخ .

٤ ــ ٥ ــ ٦ أما التمارين ، والنماذج ، والخبرات المكتسبة من التعلم فهي تابعة ، بشكلها وعرضها وطبيعتها . **للأسلوب التربوي** أو التعليمي المتبع ، ولطبيعة الموقف الجديد أو السلوك المراد تعلمه ، وللهدف المراد تحقيقه .

وهذا يدعو بدوره إلى التحدث عن « **الأساليب التربوية** » موضوع هذا البحث ، وهنا يجد الباحث نفسه أمام **تسميتين متشابهتين : طرق التعلم ، وأساليب التربية** ، كما أجدني مضطرا للمقارنة بين التربية والتعلم .

أما التعلم فقد سبق تعريفه وأما **التربية فهي « ممارسة جميع الوسائل والطرق والنشاطات التي تساهم في نمو الطفل وإكسابه ثقافة مجتمعه أو تكون لديه أنماط سلوكه العقلي والاجتماعي والنفسي والخلقي والديني وفق أهداف معينة »**[١٧] .

والقاسم المشترك بين التعريفين هو (**تعديل السلوك**) **فإكساب الطفل ثقافة مجتمعه يعني تعديل سلوكه العشوائي الغريزي الذي خلق عليه وتحويله إلى سلوك يحكي ثقافة أمته ومجتمعه** . ألا ترى أن تعلم اللغة عند الوليد يبدأ من سلوك لغوي غامض عشوائي : من أصوات وحروف لا معنى لها ، ثم يعدل هذا السلوك اللغوي إلى كلمات هادفة تمثل جانبا من ثقافة المجتمع .. فكل من التربية والتعلم يشتركان في أنهما (**تعديل في السلوك**) غير أن التعلم تعديل جزئي في موقف معين لتحقيق هدف خاص ، **والتربية تعديل كلي في حياة الطفل** ، في مواقف متتابعة لعملية تربوية منهجية قد تمتد إلى آخر العمر لتعطيه خبرات متكاملة **من أجل تحقيق أهداف الأمة التربوية** ، وتمكين الطفل من **التعايش** بسلوك جديد مع مجتمعه بأنماطه السلوكية والثقافية ، بأهدافه ومثله العليا ، التي لم يكن يعرفها الطفل : ﴿**والله أخرجكم من بُطونِ أمهاتِكم لا تعلمون شيئا** ..﴾[١٨] ، فالفرق إذاً بين التربية والتعلّم هو **فرق في الشمول والاستمرار** لا في الطبيعة . وكذلك الفرق بين طرق التعلم وأساليب التربية ، فعملية التعلم **مساهمة جزئية** في العملية التربوية البعيدة المدى ، الشاملة لكل جوانب النمو عند الطفل أو الناشئ ، بيد أن (**طريقة التعلم**) ، و (**أسلوب التربية**) يشتركان في أن كلا منهما يمكن تعريفه بأنه « نمط راق من **السلوك المنظم ، يتكرر مع تكرار المواقف التعليمية أو التربوية** ، ويهدف تكراره إلى تحقيق التعلم ، أو تحقيق جانب مقصود من التربية ، أو هدف تربوي معين ، بأفضل أداء ، وأبلغ تأثير ، للوصول إلى أفضل النتائج من غير جهد ضائع أو أثر ضار » **ثم إن التربية في الإسلام لا تنحصر في عمر معين** ، كالطفولة ، **بل تشمل جميع الناس بكل طبقاتهم وأعمارهم وألوانهم** ، فالكبير الذي دخل الإسلام بحاجة إلى تربية ، أي إلى تعديل في سلوكه ، والراشد الذي صحح فهمه للإسلام لا يقل عن ذاك حاجة إلى التربية وتعديل السلوك . كما أن **السلوك القلبي** (ويقابله في عرف التربية الحديثة السلوك العقلي والعاطفي) لا يقل أهمية في التربية الإسلامية عن السلوك الجسمي والحركي ، **بل قد يكون تعديل الأول وسيلة لتعديل الثاني** لحديث « **إنما الأعمال بالنيّات** »[١٩] ، وحديث « **ألا وإن في الجسد مُضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب** »[٢٠] .

* * *

التربيــة بالآيــات :

(أ) المعنى اللغوي والقرآني :

الآية في اللغة « العلامة والامارة والعبرة ، جمعها (آيات) ، و (آي) .. وتَأيَّيْته قصدت شخصه وتعمّدته ، وتأيَّى المكان ، تَلَبَّث عليه وتأنَّى[٢١] ، وقد تضمنت النصوص القرآنية التي ورد فيها لفظ (آية) أو (آيات) هذا المعنى اللغوي ، وزادت عليه معانٍ أخرى حتى أصبح لهذا اللفظ عدة معانٍ مثل :

١ ــ أن تأتي الآية بمعنى **العلامة** ، ومصداق هذا المعنى ، أن الله جعل لمُلك طالوت على بني اسرائيل آية (علامة) ، تدلهم أن الله اختاره عليهم ملكا فجعل (**آية ملكه**) أن يأتيهم التابوت تحمله الملائكة : ﴿**وقال لهم نبيهم إن آية مُلكِهِ أن يأتيَكُمُ التابوت ، فيه سكينةٌ من ربكم وبقيةٌ مما ترك آلُ موسى وآلُ هارون ، تحملُهُ الملائكةُ ...**﴾[٢٢] .

٢ ــ **المعنى الثاني** : وهو المقصود في هذه الدراسة : أن **الآيات علامات قائمة في الكون والإنسان** ، ماثلة للعيان ، تجتذب إليها القلب والعقل ، فيهفو إلى تأملها ، **ويتأيّاها** أي يتعمدها بالتدبّر والتفكّر المتأنّي ، تدل على ربوبية خالقها وألوهيته ووجوب توحيده ، وعلى أن هذا القرآن حق من عند الله ، كالسماوات والأرض والجبال ، واختلاف الليل والنهار والزلازل المدمرة ، والرياح العاصفة ، والسيول الجارفة والفلك التي تجري في البحر وما وهب الله الإنسان من سمع وبصر وقلب يعقل الحقائق ... وقد أشير إليها في القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيَّنَ لهم أنَّه الحق . أوَلَم يَكفِ بِرَبِّك أنّه على كلِّ شيء شهيد**﴾[٢٣] .

وكذلك جعل الله ، فيما أجراه على أيدي بعض رسله من معجزات ، آيات تدل على صدقهم في دعوتهم إلى توحيد الله وطاعته ، **كما جعل في إهلاك المفسدين والطواغيت ، والأقوام الذين عتوا عن أمر ربهم ، آيات تدل على قدرته وعدله وسننه في إهلاك الظالمين** ، وفي نصرته لرسله وعباده المؤمنين كما قال تعالى : ﴿**إنّ في ذلك لآيةً ، وما كان أكثرُهُم مؤمنين**﴾[٢٤] ، كررها بعد قصة (ثمود) و (قوم لوط) ، و (أصحاب الأيكة) .

٣ ــ **المعنى الثالث** : إن الآيات مقاطع من القرآن الكريم ، من كلام الله الذي يتلى **ليتعبد بتلاوته** ، ويتلى **لتأمل معانيه وإعجازه** ، ودلالته على أنه من عند الله ، وعلى صدق الرسالة المحمدية كما قال تعالى : ﴿**تلك آياتُ الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين**﴾[٢٥] ، ويتلى كذلك **لتربية أبناء الأمة وتزكية نفوسهم وتعليمهم الكتاب والحكمة** : ﴿**كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون**﴾[٢٦] ، ويحسن تنبيه القارئ إلى أن هذا البحث سيتناول **آيات الله في الآفاق** وفي أنفسنا ، وسنشير إلى الآيات (بالمعنى الثالث) بلفظ (نص قرآني) ، دفعنا للالتباس .

(ب) مثال على أسلوب التربية بالآيات :

من الواضح لمن يتتبع آيات الله في الآفاق ، كما عرضت في القرآن الكريم **أنها موجهة لمن يعمل فكره ويرهف سمعه وبصره** ، كما سنرى ، بقصد الوصول إلى الحق . **فليس جميع الناس سواءً في تلقّيه لهذه الآيات وتأثرهم بهذا الأسلوب القرآني** . لذلك آثرت أن أقدم بين يدي هذه الدراسة تحليلا لبعض هذه الآيات الكونية ، كما وردت في القرآن الكريم ، **وكما تأثر بها أحد المفسرين المعاصرين ، بما أوتي من صفاء الفطرة ، ومن قلب سليم ، يحيى بالقرآن** ، ويعمل به ، ويتأثر بأساليبه ومعانيه ، ويحسن تذوقها وعرضها : قال تعالى : ﴿**إن في خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبثّ فيها من كل دابّة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقومٍ يعقلون**﴾[٢٧] .

وهذه آيات خمس تمثّلت فيها معان تسترعي النظر ، فيقصدها الإنسان بالتأمل والتفكر ، وقد عرضت بطريقة القرآن الخاصة التي وصفها سيد قطب بقوله : (**فهذه الطريقة في تنبيه الحواس والمشاعر جديرة بأن تفتح العين وتبصّر العقل بعجائب هذا الكون وتدعو الإنسان أن يرتاد هذا الكون كالذي يراه أول مرة مفتوح العين ، متوفر الحس ، متيقظ العقل والقلب**)[٢٨] :

١ ــ ﴿**إنَّ في خلق السماوات والأرض ...**﴾ : فالسماوات بما تضمّه من أبعاد هائلة وأجرام ضخمة وآفاق عجيبة : وعوالم مجهولة ، مع هذا التناسق في مواقعها وجرياتها في ذلك الفضاء الهائل ، تقابلها الأرض بجبالها وأنهارها ونباتها ودوابها وكائناتها التي لا تحصى ، يربطهما الخضوع لنظام واحد لا يتغير ، بل تتكرر حوادثه خاضعة لنسق واحد وترتيب واحد وهو موضوع الآية الثانية :

٢ ــ ﴿**واختلاف الليل والنّهار**﴾ .. تعاقب النور والظلام .. توالي الاشراق والعتمة .. ذلك الفجر وذلك الغروب .. **ألا يدعو ذلك إلى التساؤل** عن سر هذا التعاقب المنتظم ، رغم تكراره على النسق ذاته كل عام : إذ يعود الليل ليطول ثم يتقاصر ، ويحل الليل في النهار تدريجيا ، ثم يشرق النور ليمحو الظلام . يتكرر ذلك بمواعيد متساوية : ... كل يوم يساوي نظيره الذي كان قد مضى في العام المنصرم بنفس التاريخ من الشهر الشمسي المقابل .. **فهذه الدورة** التي تدورها الأرض حول نفسها وحول الشمس مسببة الليل والنهار وتناوب الفصول الأربعة ... **تذهل المتأمل وتدعوه إلى التساؤل عن سر هذا النظام ، وعمن أوجده ورتبه بهذه المواعيد الثابتة والمظاهر المتشابهة ، المتناغمة .. المتكررة على نسق واحد !!..؟ ثم تأتي الآية الثالثة :**

٣ ــ ﴿**والفلكِ التي تَجري في البحرِ بِمَا ينفعُ النَّاسَ**﴾ : (كل منها نقطة صغيرة في خضم المحيط ، تحملك أيها الإنسان وتجري بك . والموج المتلاطم ، والزرقة المطلقة ــ وكأنها لا نهاية لها ــ من حولك في كل اتجاه ، والفلك سابحة متناثرة ، ولا شيء تحسّه إلا قدرة علوية عظيمة ، ورعاية شاملة رحيمة ، **جعلت قانون الكون يحتمل تلك النقط الصغيرة على ثبج الأمواج وخضمها الرهيب**)[٢٩] ، أفلا يدلك احساسك هذا أيها الإنسان العاقل المتفكر على صاحب تلك القدرة المعجزة ، ومسخر ذلك القانون الكوني الشامل ؟

٤ ــ ﴿**وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثَّ فيها من كل دابّة**﴾ ، وهذه آية رابعة تصف أرضا يبابا ، لانبات فيها ولا ماء ، وأهلها يتضرعون راجين القطر من السماء ... ، ثم إذا بالرياح تهب ، تحمل السحاب مسخرا بين السماء والأرض ، تسوقه إلى هذه الأرض الميتة وتمطر السماء باذن ربها ، فتدب الحياة بعد موات ، وتنبت الأرض أزواجا من نبات شتّى ، ويشعر الناس في أعماقهم بنداء علوي رحيم .. : ﴿**كلوا وارعوا أنعامكم إنَّ في ذلك لآياتٍ لأولي النُّهى**﴾[٣٠] ، وتتساءل النفس البشرية ذات الفطرة السليمة عمن فعل هذا وكيف فعله ، ومرة أخرى يجيبها التنزيل السماوي الحكيم ، في الآية الخامسة :

٥ ــ ﴿**وتصريف الرياح والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض لآياتٍ لقومٍ يعقلون**﴾ : (وسر هذه الآية في شمولها ، فلا يكفي أن تقوم نظرية لتقول ما تقوله عن أسباب هبوب الريح ، وعن طريقة تكوين السحابة .. **إن السرّ الأعمق هو**

سر هذه الأسباب ، سر خلقة الكون ، وتركيبه بهذه الطبيعة وبهذه النسب والخصائص والأوضاع ، التي تسمح بنشأة الحياة ونموها ، وتوفير الأسباب الملائمة لها : من رياح وسحاب ومطر وتربة .. سر هذه الموافقات والقوانين التي يعدّ المعروف منها بالآلاف ، **والتي لو اختلت واحدة منها ما نشأت الحياة ، أو ما سارت هذه السيرة**)[٣١] .

هذا عرض موجز لخمس آيات ، أشرنا في أولها إلى **الطريقة التي استشعرها سيد قطب في هذا العرض ، ثم ختمها بما يجب أن تكون عليه طريقة التفكير والتلقي لهذه الآيات** ، تلك الطريقة التي لخصها القرآن بثلاث كلمات ﴿**لآياتٍ لقومٍ يعقلون**﴾ فكيف (يعقلون) ؟ يجيبنا سيد قطب عن الأسلوب الذي به يجب أن نعقل به هذه الآيات فيقول :

(**نعم لو ألقى الإنسان عن عقله بلادة الألفة ، فاستقبل مشاهد الكون بتجدد ونظرة مستطلعة ، .. ولو سار في هذا الكون كالرائد الذي يهبط إليه أول مرة : تلفت عينه كل ومضة وتلفت سمعه كل نأمة ، ... وتهز كيانه تلك الأعاجيب التي ما تني تتوالى على الأبصار والعقول والمشاعر**)[٣٢] ، لعَقَلَ هذه الآيات وآمن بخالق الكون .

(جـ) المعنى التربوي :

يدل ما مضى على أن هذا الأسلوب القرآني يربي عقل الإنسان وسمعه وبصره ومشاعره على **حسن الإدراك ، وعلى الاستبصار واستخدام الحواس وارهافها** ، لتوصله إلى معرفة مسبب الأسباب ومعرفة الحق ، عندما يربط النتائج بالأسباب .

(د) التحليل النفسي والتربوي :

وهكذا يمكن تحليل هذا الأسلوب إلى العناصر النفسية التالية :

١ ــ إنه أسلوب يتطلب من المتعلم **إيقاظ حسه** بالجمال والتناسق والكمال ويدعوه إلى **التفتح** ، لتكوين خبرات ومدركات جديدة عن الكون ، وذلك بأن يعرض للإنسان مشاهد الكون **ليتأمل** بعض مظاهره أو نظمه أو قوانينه وسننه .

٢ ــ ثم يدعوه إلى **التفكر والتساؤل** عن سر هذه القوانين والنظم وبالتالي عن موجدها والقيّوم عليها .

٣ ــ وهكذا يوصله **التأمل إلى نظرة شاملة كلية تدعوه أمام كل مشهد أو ظاهرة أو واقعة من وقائع الكون للخضوع بمشاعره إلى خالق هذا الكون** ومدبر أموره ، والقائم على تحقيق قوانينه .

٤ ــ **ثم يدعوه إلى السلوك المطلوب** نحو هذا الخالق ، أي إلى توحيد الله أولا ، وشكره وارضائه ثانيا ، وذلك باتباع أوامره ، واجتناب نواهيه .. **ولقد اهتدت التربية الحديثة بعد تجارب طويلة ، إلى هذا الأساس الفكري الهام من الأسس التربوية . وهو الذي عبر عنه « جون ديوي » بقوله : « إن الوسيلة المباشرة إلى تحسّن طرقنا في التدريس والتعلّم تحسّنا مطردا هي تركيز انتباهنا في الأحوال التي تستلزم التفكير ، وتمتحنه . فالتفكير هو طريقة التعلم الرشيدة »**[٣٣] . وهكذا كان للقرآن الكريم السبق إلى هذا الأسلوب التربوي ، بِوَضْعِ الإنسان أمام الأحوال التي تستلزم التفكير وتنميه وتمتحنه .. !!

غير أن القرآن جاء بأساليبه ، **لتربية الإنسان ــ كل إنسان ــ** وإيقاظ عقله ومشاعره ، ولم يقصر تلك الأساليب على الصغار دون الكبار ، ولذلك كانت آياته تجذب النظر وتثير الانفعال نحو **مشكلات كونية كبرى ، بعد أن تبدأ بمواقف ومشاهد جزئية صغرى** تؤدي إلى تلك المشكلات . فتدفع الفكر البشري في النهاية ، إلى **التساؤل** لماذا كان الكون بهذا النظام البديع ؟ من الذي نظم هذا الكون الرحيب ؟ ما مصير هذا الكون ولماذا خلق ؟ ما واجبي فيه .. ؟ ومن هذا التحليل المبدئي نجد القرآن الكريم قد شمل ، بهذا الأسلوب التربوي ، أكثر من طريقة من طرق التعلم المعروفة اليوم ، كما أنه قد سبق إلى استخدامها :

(أ) ففيه سبق إلى طريقة « **التعلم بواسطة الاستدلال وحل المشكلات** » بشكلها المبسط الذي يستهوي العالم وغير العالم والصغير والكبير ... وهي طريقة « تعتبر الاستدلال أداة لحل المشكلات » وهو في الوقت نفسه صورة من صور التعلم تتضمن :

١ = اختيار الخبرة السابقة ، أو البحث بطريقة منظمة عن معلومات جديدة ترتبط بالهدف . ٢ = إدراك العلاقات . ٣ = الملاءمة الغرضية بين الوسائل والغايات[٣٤] .

وتمر طريقة حل المشكلات بمراحل أهمها :

١ ــ ٢ ــ الشعور بالمشكلة وتحديدها .

٣ ــ اكتشاف العلاقات ووضع الحل واختباره .

٤ ــ تطبيق الحل .

ويتضمن أسلوب التربية بالآيات هذه العناصر الأساسية :

١ ــ فالقرآن يعرض علينا **مشاهد من الكون تحتاج إلى تفسير** كالسماء والأرض ، والليل والنهار ، والمطر والسحاب ، وانبات الزرع ، ... الخ . وهذا كفيل بأن يشعرنا بأن هناك دلالة ونتيجة تكمن وراء هذه المظاهر ، وتتحدى العقول : ﴿**لآيات لقوم يعقلون**﴾ .

٢ ــ ويحاول الإنسان أن **يحدد جوانب المشكلة** ، ويضع لها أسئلة كثيرة ، مستعرضا خبراته السابقة مثل : من الذي أنزل المطر ؟ أكان أحد من البشر قادراً على ذلك ؟ أكان أحد الأصنام قادرا على ذلك ؟ وهكذا تتوارد الأسئلة عن كل شيء .. عن الرياح والنبات والسماء والأرض والمطر .

٣ ــ ويدرك الإنسان بحدسه وفطرته أنه لا بد من علاقة بين هذا النظام وبين قوة عليا أكبر من الإنسان ومن كل الكائنات ، قوة منظمة قادرة على تقليب الليل والنهار ، وتنظيم حركة الشمس والقمر والأرض ، وكافة الكواكب وتصريف الرياح وتسخير السحاب وماء البحار والدواب ...

٤ ــ فاذا **اقتنع عقله** بهذا الاستدلال ، **وخشع قلبه** لخالق الأكوان ، وأثارت هذه الآيات والدلائل العظمى عنده انفعالات الارتياح إلى الحق ، والخضوع والخشوع والاندماج في هذه الحقائق الكونية ، والتساؤل عن مآل الإنسان والكون ــ أصبح مستعدا لتطبيق هذه النتائج والشعور بهذه الانفعالات أمام كل آية من آيات الله في الكون وفي الإنسان ، والوصول للقناعة الفكرية بعظمة خالق الأكوان ، وتبعية الكون والبشر جميعا لمشيئته وقدرته ، ووجوب طاعته وتحقيق العبودية له ، فيحقق ذلك في سلوكه ، ويطبق شريعة الله في علاقاته كلها .

(ب) ثم إن **إدراك العلاقة** بين الكون وخالقه ، أو بين بعض أنظمة الكون وتغيراته المتكررة بنظام رائع بديع ، وبين موجد سننها ومسيرها ، إنما يتم بأسلوب تربوي فطر عليه كل إنسان يسمى **الاستبصار** (وهو ــ كما عرفه الأستاذ ماكونل ــ وضع المتعلم أمام مشكلة ، وضعا يمكّنه من اكتشاف العلاقات التي توصله إلى حل المشكلة دفعة واحدة ، أو بشكل تدريجي حتى يصل إلى الهدف) . ويقول

الأستاذ ماكونل : « إن عنصر الاستبصار يوجد في ضروب نشاط التعلم عندما يتمكن الفرد من النفوذ إلى الموقف وفهمه ككل ، ففي موقف مشكل يعني الاستبصار بروز حل كامل ، ومن وجهة نظر أخرى يتميز التعلم بالاستبصار عندما يكون سلوك الفرد منظما تنظيما كاملا في ضوء الهدف »[٣٤] .

ونحن نلاحظ في عرض القرآن لآيات الله في الآفاق وفي أنفسنا ، أن النصوص القرآنية تنظم كل طاقات الإنسان وتوجه انفعالاته وحواسه ، نحو تحقيق **هدف واحد هو : إدراك العلاقة بين المخلوقات والخالق بين أنظمة الكون ومن نظّمها ، وتتحدى كل مرة ، عقل الإنسان**[٣٥] ، **وسمعه وبصره ، ليتأكد من الجواب** ، أو ليقلب بصره ويرهف سمعه في الأجواء والآفاق التي تعرض عليه ، حتى يصل إلى **الحل** أي حتى يدرك العلاقات التي توصله إلى الجواب عن المشكلة ، أو يدرك الدلالة التي تدل عليها المشاهد الكونية وآيات الله في الآفاق . والاستبصار من عمل العقل والإدراك ، والحواس وسيلة إليه ، **فإذا عجز العقل أو (القلب) لم يُفد البصر الحسي : ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكونَ لهم قلوبٌ يَعقِلون بها أو آذانٌ يسمعونَ بها فإنها لا تعمى الأبصارُ ولكن تعمى القلوب﴾**[٣٦] . وقد جعل الله تبارك وتعالى بعض آياته وسيلة لتبصيرنا ، أي لنستبصر بها .

وهكذا نلاحظ أن هذا الأسلوب القرآني في عرض الآيات ، يقف بنا عند كل آية أو مجموعة من الآيات ، كأنما تؤلف مشكلة قائمة بذاتها لا ينبغي أن يتعداها الإنسان حتى يجد حلا ، أو جوابا لتساؤله عنهما . فالله جل جلاله يؤكد أن في هذه المشاهد دلالات يستدل بها العقلاء ، ثم يترك لعقولنا أن تصل إلى مدلول هذه الآيات ، إذا كنا نستبصر أو نستخدم بصيرتنا في الوصول إلى الحق ، كما قال موسى لفرعون عن الآيات التي عرضها : **﴿قال لقد علمتَ ما أنزل هؤلاءِ إلا ربُّ السمٰوات والأرضِ بصائرَ ...﴾**[٣٧] .

وهكذا يدعونا الحق إلى أن نسخّر ذكاءنا ، ونفتح مواهبنا ، ونستخدم بصيرتنا ومحاكماتنا العقلية ومشاعرنا وحواسّنا ، لنفهم هذه الآيات ونعقلها ... **ولكي يربي القرآن هذه المحاكمة وتلك المشاعر يتجلى اعجازه البياني في حسن العرض ، وتحدي الفكر البشري ولفت الانتباه إلى مواطن الاثارة والدهشة** : تارة بالمقارنة والمقابلة بين الأشياء المختلفة ذات المنشأ الواحد ، وتارة بدعوة المخاطب إلى استخدام العقل والسمع أو البصر ، أو كل ذلك معا للوصول إلى الجواب : إلى نتيجة الاستدلال والمحاكمة كما سنرى .

(هـ) الآثار التربوية لأسلوب التربية بالآيات :

لقد ترك القرآن في النفس بهذا الأسلوب ، آثارا بالغة في تربية عقل الإنسان ، نذكر منها :

١ ــ تربية العقل على سعة الأفق وحب الاطلاع والتفكر والتأمل :

فقد وردت الدعوة إلى **استخدام العقل** في معظم الآيات أو الأدلة الكونية ، وقد رأيناها صريحة في الآيات الخمس التي حللناها ، في سورة البقرة ، حين بينا كيف وجه السياق القرآني هذه الآيات والدلائل إلى الذين يستخدمون عقولهم في سبيل الوصول إلى الحق . ومثل هذا كثير في القرآن كما ورد في سورة الروم : ﴿**ومن آياته أن خلقكم من ترابٍ ... ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾[٣٨] ، كذلك دعانا القرآن الكريم إلى **التفكّر** فيما سخر الله لنا ، كما في قوله تعالى : ﴿**وسخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه ، إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾[٣٩] ، ومدح الله تعالى ﴿**أولي الألباب**﴾ لأنهم يتفكرون في خلق السماوات والأرض كلما قاموا وقعدوا ورقدوا ، وهم يتأملون آيات الله ودلائل قدرته : ﴿**إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض**﴾[٤٠] ، ولم يكتف هذا الأسلوب التربوي القرآني بالحض على التفكر في آيات الكون ، بل دعانا كذلك إلى التأمل والتفرس في الآثار التاريخية الدالة على قدرة الله تعالى على **إهلاك الظالمين** ، فبعد أن يقص الله علينا خبر **قوم لوط** ، يوجه هذه الآيات إلى (**المتوسمين**) أي **الناظرين** ، **المتأملين** ، ويشير إلى آثار الهلاك الماثلة للمسافرين ، يمرون عليها صباحا ومساء ، **ليؤكد مطالبتهم بالتعقل** ، أي بالتفكر في دلالة هذه الآثار والاعتبار بها بعد التبصر وامعان النظر والدراسة كلما مروا بها : ﴿**فجعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ، إنّ في ذلك لآيات للمتوسمين ، وإنها لبسبيلٍ مقيمٍ ، إنّ في ذلك لآيةً للمؤمنين**﴾[٤١] .

٢ ــ **تربيــة الحــواس :**

من لوازم هذا الأسلوب التربوي القرآني ، الدعوة إلى استخدام الحواس ، وخاصة **السمع والبصر ، نجد ذلك في أواخر الكثير من الآيات الكونية حين يتطلب منا النص القرآني النظر إلى دلائل عظمة الله والاستماع مع التأمل ، إلى ما أنزل في كتابه عن الليل والنهار والظلمات والنور ، والسعي والاستقرار ، وكلها مواقف يعانيها الإنسان ويستشعرها . فإذا سمع أو قرأ كلام الله عنها وتأمله** ، عاد إلى خبراته السابقة ، فأعاد ترتيبها وربطها بما سمع أو قرأ ، ليستدل على قدرة الله أو حكمته أو رحمته وعنايته بالانسان ، كما في قوله تعالى : ﴿**هو الذي جعل لكمُ الليل لِتسكنوا فيه والنّهار مُبصراً ، إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يسمعون**﴾[٤٢] ، فاستخدام السمع هنا وسيلة لادراك الفرق بين سكون الليل ، وصخب النهار ، فالانسان محتاج إلى أن **يصيخ بسمعه في جوف الليل ليدرك سر هذا السّكون المُطبق ، وأثره في هدوء النفس** ، وارتياح المشاعر والأعصاب من متاعب النهار ، وليعرف الدلالة النفسية لهذه (الآية) الدالة على عظمة الله وحكمته في ترتيب الليل والنهار ، وتسخيرهما لمصلحة الإنسان .

وقد وردت هذه الدلالة في نص آخر من القرآن الكريم : ﴿**ومن آياته منامُكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فَضلِه ، إنّ في ذلك لآيات لقوم يسمعون**﴾[٤٣] . كما جاءت الدعوة إلى استخدام **السمع والبصر** عند عرض القرآن لآيتين من آيات الله : آية موضوعها **اهلاك الظالمين من أهل القرون الأولى** ، وآية موضوعها **احياء الأرض بعد موتها** كما في النص التالي : ﴿**أولم يَهدِ لهم كم أهلكْنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ؟ إنَّ في ذلك لآيات أفلا يسمعون ؟ أوَلَم يروا أنا نسوقُ الماء إلى الأرض الجُرُزِ فنُخرِجُ به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون**﴾[٤٤] . فجاء الحضّ على السماع عند استعراض **آية اهلاك الظالمين** ، لأجل تلقي الأخبار التاريخية حول هؤلاء **الهالكين** ، وقد وردت أخبارهم في كثير من السور القرآنية . وجاء الحض على استخدام **حاسة البصر** لتأمل الزروع والحياة التي تدب في الأرض بعد أن ساق الله إليها المطر ، وقد كانت من قبل قفراً ، لا نبات فيها ولا حياة ، ووظيفة **السمع والبصر** هنا أن يقدما للعقل ما يستخدمه من المعلومات لاجراء الاستدلال والوصول إلى الحق الذي يبحث عنه الإنسان ، **فإذا لم تتحقق هذه الوظيفة لم تغن الأبصار والأسماع أصحابها ، وان استخدموها ليتمكنوا في الأرض ، كالذين وصفهم الله تعالى بقوله :** ﴿**ولقد**

مكنّاهم فيما إن مكّنّاكم فيه ، وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾[٤٥] .

٣ ــ **تربية العقل على حسن المحاكمة والاستدلال والجدل لمعرفة الحق :**

وهذا الأسلوب في التفكير مفاده **ترتيب النتائج** على مقدمات يسلم بها الخصم إمّا لوضوحها للعيان بالفطرة والحدس ، وإما لما سبق من البرهان والاتفاق عليها . **واجراء الدليل بهذا الأسلوب يسمى استدلالا** ، وتعتمد صحة النتائج على أمور أهمها : صحة المقدمات ، والربط بين النتائج والمقدمات أو لزوم النتائج عن المقدمة وفق مباديء العقل ، أو وضوح العلاقة بينهما . وكل ذلك متضمَّن وملحوظ في (الآيات) الكونية والنفسية المعروضة في القرآن الكريم كما حققه ابن تيمية[٤٦] . ويمكن عرض آية من آيات الله في خلق الإنسان على طريقة العقليين ، وأهل المنطق ، وذلك بمقدمات ونتيجة فيصبح الاستدلال على النحو التالي :

المقدمات : الإنسان حادث مخلوق . ولا بد لكل حادث من محدث خالق ، والإنسان لم يوجد نفسه .

النتيجـــة : إذن لا بد للانسان من خالق وهو الله .

وهذا الاستدلال مأخوذ من قوله تعالى ﴿**أم خُلقوا من غير شيءٍ أم هُمُ الخالقون**﴾[٤٧] ، وهو ينص على آية من آيات القدرة . ومن آياته الحكمة والتنظيم الإلهي : تعاقب الليل والنهار ويمكن عرضها على النحو التالي على طريقة الاستدلال :

المقدمات : يتعاقب الليل والنهار بنظام محكم ثابت ، مفيد لحياة الإنسان (كما رأينا في الأدلة على تربية الحواس) ، لا نظام ولا أحكام بغير منظم حكيم ، (وهذا من لوازم الحدس والفطرة السليمة) ، الإنسان لم يوجد هذا النظام ولا يستطيع أحد في هذا الكون أن يغير فيه شيئا .

النتيجـــة : إذن لا بد من منظم حكيم قائم على تعاقب الليل والنهار وهو الله .

وقد تعددت النصوص القرآنية في بيان هذه (الآية) ، وقد استنبطت الاستدلال السابق من معانيها المتعددة ، فالمقدمة الأخيرة تؤخذ من قوله تعالى : ﴿**قل**

أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة ؟ مَن إلهٌ غيرُ الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ؟ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً ...﴾[٤٨] ، وقد يتساءل القارئ لماذا لم تأت المقدمات في البرهان القرآني بهذا الترتيب المبسط الذي ورد في أبحاث المنطقيين وكتب المناهج ؟ .

والجواب : أن لإيراد البراهين والحجج القرآنية هدفا ارشاديا تربويا فلكي يبلغ تأثيرها مبلغه من قلب المخاطب ويثير عواطفه ورغبته في التفكر والتأمل ، **جاءت على شكل أسئلة تتحدى فكره وتثير انفعالاته ، وتفتح بصيرته** ، أو تعينه على (**الاستبصار**) والتعلم بجهده الذاتي ، كما رأينا عند بحثنا عن (التحليل النفسي والتربوي لأسلوب التربية بالآيات) لذلك تركت النصوص القرآنية الشريفة **مجالا للمتأمل** ، ليجيب بنفسه عن أسئلة القرآن الكريم ، ويكون جوابه مرة من (المقدمات البرهانية) ــ كما سماها **ابن تيمية** ــ[٤٩] ، وتارة يصل بجوابه إلى النتيجة المطلوبة في الاستدلال أو البرهان ، **ليجد لذة وقناعة** . ثم ان عرض (الآيات) على هذا النمط الحِواري يترك للمتعلم مجالا (للشعور بالمشكلة) ، والبحث في خبراته السابقة عن حل لها ، أو تنظيم خبراته السابقة تنظيما يناسب الموقف ، للوصول إلى الحل المطلوب ، ولادراك العلاقة بين الدلالة المعروضة من خلق أو مطر أو رزق ، وبين الهدف المنشود ، وهو لزوم وجود خالق ، رازق منظم لهذا الكون . **والقرآن الكريم لا يكتفي بمجرد إسكات الخصم ، أو إشعاره بضعف حجته وقوة الحجة القرانية ، بل يريد أن يكسب قلبه وعواطفه إلى جانب الحق** ، ليكون جنديا يدافع عن هذا الحق ويعمل بمقتضاه ، أي ليوصله إلى مرحلة (التطبيق والتعميم) وهي من أهم مراحل هذا الأسلوب التربوي القرآني ، الذي سبق إلى طريقة (التربية بالاستدلال) وإلى طريقة (التربية بالمشكلات) من طرق التعلم في علم التربية المعاصرة كما رأينا .

٤ ــ تربية العقل على الإيمان بالسنن الكونية والقوانين الإلهية الثابتة :

تدلنا بعض الآيات على أن حوادث الكون خاضعة لسنن وقوانين سنها الله وفق أقدار قدرها ، وقد أشار القرآن إلى بعض هذه السنن عند عرض آية الليل والنهار والشمس والقمر ﴿**وآية لهم الليل نسلخُ منه النهار فإذا هم مظلمون ! والشمس تجري لمستقرٍ لها ذلك تقدير العزيز العليم ! والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم**﴾[٥٠] ، فدل هذا العرض على أن دورة الشمس والقمر في فلك لا يحيدان عنه ، وفي مواسم لا تتخلف وفق تقدير محكم هو تقدير العزيز

العليم ، بما سنه من سنن كونية ثابتة ومقادير قدرها ، فهي لا تتغير ولا تتبدل ﴿**لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلٌّ في فلكٍ يسبحون**﴾[٥٠] .

٥ ــ **تربية التفكير الكمي :**

كذلك تعلم الإنسان ، من آيات الله في الكون وظواهره ، أشياء كثيرة ، منها مبادئ علم الحساب ، وقد نسبه القرآن إلى ذلك عند عرض آيتي الليل والنهار : ﴿**وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل ، وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب**﴾[٥١] ، فتعلم الإنسان العد من تكرار الليل والنهار . ومنها الاهتداء بالنجوم وقد جمع سبحانه بين الأمرين في آيتين متتاليتين ، كما علمنا أن كل شيء نراه في الكون مقدر عند الله تقديرا كميا فقال تعالى : ﴿**الشمس والقمر بحسبان**﴾[٥٢] ، وقال تعالى : ﴿**الله يعلم ما تحمل كلُّ أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار**﴾[٥٣] .

وإذا رجعنا إلى تاريخ علم الحساب ، وعلم النجوم أو الفلك ، وجدنا مصداق هذه الآيات ، **فالانسان بنى علم الحساب على تكرار الوحدات المتساوية أولاً** ، فتعلم العد من تتابع الليل والنهار ، ثم الاضافة ثم الانقاص (الطرح) ثم تكرار مجموعات من الأعداد أو الوحدات المتساوية (الضرب) ثم القسمة ... وأول **ما جذب نظر الإنسان إلى تكرار الوحدات هو تكرار الليل والنهار** أي الأيام ، ثم الأشهر القمرية ، ثم عدد السنين وكلها وحدات متجانسة تتكرر بتناظر دقيق ، وأما **علم الفلك** فناتج عن رصد تحركات الكواكب ، ودراسة مواطنها والثابت منها والمتغير بحسب الرؤية الظاهرة للعين ، وانما كان الانسان يدرس ذلك كله بقصد الاهتداء إلى الجهات الأربع في ظلمات الليل البهيم ، ليحدد اتجاهه والبلدان التي يقصدها في أسفاره البعيدة كما أشار القرآن إلى ذلك .

٦ ــ **البحث عن السنن والقوانين الاجتماعية والتاريخية :**

كذلك يرينا الله آياته ليبحث الإنسان عن سنن الله في الأمم السابقة مما يجعل تفكيره سليما مبنيا على قانون ثابت ، وقد صرحت بعض الآيات بهذه السنن في مجال التاريخ والمجتمع البشري ، وطالبت بدراستها قال تعالى : ﴿**قد خلت من قبلكم سننٌ ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين**﴾[٥٤] ، فهو سبحانه يقرر وجود سنن وقوانين إلهية للبشر والأقوام السابقة ، ويطالب بالسير في الأرض والنظر والتأمل في الآثار للتأكد من هذه السنن . وفي سورة غافر يبين الله لقريش

عاقبة الكفار من قبلهم ثم يحضهم ويأمرهم بالسير والنظر في آثار الّذين من قبلهم ، ليبين لهم سنة من سننه إذ يقول : ﴿**أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم ؟ كانوا أكثر منهم وأشدَّ قوة وآثاراً في الأرض ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون * فلما جاءتهم رسلهم فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون * فلما رأوا بأسنا قالوا : آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يكُ ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التي قد خلت في عباده ، وخسر هنالك الكافرون**﴾[٥٥] ، فكانت سنة الله أن خسران الكافرين أمر محقق ، وأن إيمانهم عند نزول العذاب لا ينفعهم . فثبوت السنن التاريخية ، يشتق منه أعظم مبدأ في التفكير العلمي اليوم : هو ثبوت القوانين العلمية ﴿**ولن تجد لسنَّة الله تبديلا**﴾[٥٦] .

٧ ــ **ومن تربية التفكير العلمي ، البحث عن الأسباب والغايات :**

فالله جل جلاله يذكرنا مرة بعد مرة أنه ما خلق السماوات والأرض والشمس والقمر إلا (بالحق) ، وأنه ما خلق البشر عبثا ، بل خلقهم لتحقيق غاية هي اختبارهم ثم حسابهم يوم يرجعون إليه : ﴿**أفحسبتم أنما خلقنٰكم عبثاً وأنّكم إلينا لا ترجعون ؟ فتعالى الله الملك الحقّ**﴾[٥٧] .

ويقول سبحانه عن خلق الشمس على هذا النظام والتقدير : ﴿**هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصِّل الآيات لقوم يعلمون**﴾[٥٨] .

فالهدف (أو الحق) هنا : تفصيل الدلائل على قدرته تعالى . وفي بعض الآيات يكون الهدف (الحق) **تبليغ الكون إلى أجله المسمى ثم قيام الساعة** والرجوع إلى الله ليحاسب العباد على ما أراهم من آياته ودلائل قدرته وما أنعم عليهم من هذه النعم :

﴿**أو لم يتفكروا في أنفسهم ؟ ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجلٍ مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون**﴾[٥٩] .

وقال سبحانه في تحليل خلق الموت والحياة : ﴿**الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيُّكم أحسن عملا ؟**﴾[٦٠] . فهذه الآيات وأمثالها تربي العقل على التفكير العلمي الجاد والبحث في كل ظاهرة من الكون عن غاياتها وأسبابها ، أو حكمتها **لأن الله تعالى لم يخلق شيئا إلا بالحق ، أي لسبب وغاية ، وبقدر ، وإلى أجل مسمى .**

الهوامـش

(١) سورة العلق : ١ .

(٢) سورة فصلت : ٥٣ .

(٣) ، (٤) ، (٥) ستأتي الأدلة على كل هذا في طيات بحث «الآثار التربوية للتربية بالآيات» .

(٦) حديث صحيح رواه أحمد ومسلم وأبو داود عن عائشة ــ انظر صحيح الجامع الصغير للألباني رقم ٤٦٧٨ ، ج٤ ص٢٣٨ نشر المكتب الإسلامي ببيروت .

(٧) انظر اسماعيل بن كثير ــ تفسير القرآن العظيم ــ ج٤ ــ ص٣٠١ ، عند تفسير آخر سورة الواقعة . و ص٥٦٣ ــ آخر تفسير سورة النصر . ط. دار احياء التراث العربي ــ بيروت ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م .

(٨) ، (٩) آرثر غينيس وآخرون : علم النفس التربوي ــ تعريب ابراهيم حافظ ورفاقه ــ ج٣ ــ ص٥ ــ نشر مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٤م .

(١٠) العاديات : ٨ .

(١١) البقرة : ٩٦ .

(١٢) الجمعة : ٨ .

(١٣) البقرة : ٩٦ .

(١٤) آل عمران : ١٤ .

(١٥) البقرة : ١٦٥ .

(١٦) لقمان : ٣٢ .

(١٧) أصول التربية الإسلامية ــ مذكرة أعدت لجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، ١٤٠٢ ــ ١٤٠٣م أبو صالح ــ م. ياالجن ــ ع. النحلاوي .

(١٨) النحل : ٧٨ .

(١٩) صحيح البخاري (رقم الحديث ١) : ج١ ــ ص٤ ــ طبع : دار اليمامة دمشق .

(٢٠) صحيح البخاري (رقم : ٥٣) : ج١ ــ ص٢٩ ــ (مرجع سابق) .

(٢١) محمد بن يعقوب الفيروزأبادي ــ القاموس المحيط ــ ج٤ ص٣٠١ ــ ٣٠٢ .

(٢٢) سورة البقرة : ٢٤٨ .

(٢٣) سورة فصلت : ٥٣ .

(٢٤) تكرر هذا النص في الآيات ١٥٨ ، ١٧٤ ، ١٩٠ من سورة الشعراء .

(٢٥) سورة البقرة : ٢٥٢ .

(٢٦) سورة البقرة : ١٥١ .

(٢٧) سورة البقرة : ١٦٤ .

(٢٨)سيد قطب . في ظلال القرآن . ج١ ص١٥٣ . دار الشروق الطبعة٣ .

(٢٩) سيد قطب . المرجع السابق ١/ ١٥٣ ، وبريد بثبج الأمواج ظهر الأمواج كما في القاموس المحيط ١٨٠/١ .

(٣٠) سورة طه : ٥٤ .

(٣١) ، (٣٢) سيد قطب : في ظلال القرآن ــ ج١ ــ ص١٥٣ ــ مرجع سابق .

(٣٣) جون ديوي : الديموقراطية والتربية . ص١٥٩ ــ ترجمة متى عقراوي و زكريا ميخائيل ــ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٥هـ ١٩٤٦م القاهرة .

(٣٤) ارثر غيتس ورفاقه : علم النفس التربوي ــ راجع ج٢ ص١٧٣ ، ١٧٩ ، ١٩٦ مرجع سابق . وانظره نفسه ج٢ ــ ص٤٠ ــ ٤١ .

(٣٥) سيأتي الدليل على ذلك عند بحث الآثار التربوية لأسلوب التربية بالآيات .

(٣٦) سورة الحج : ٤٦ .

(٣٧) ١٠١ الآيتان من سورة الاسراء ، ومعنى بصائر : حُجَجٌ وأدلة توقظ البصيرة وتعين على الاستبصار .

(٣٨) الآيتان ٢٠ ــ ٢١ من سورة الروم . وانظر الآية ٤٢ من سورة الزمر والآية (٥) من الجاثية .

(٣٩) سورة الجاثية الآية ١٣ .

(٤٠) الآيتان ١٩٠ ــ ١٩١ من سورة آل عمران .

(٤١) الآيات ٧٤ ــ ٧٧ من سورة الحجر ، وانظر تفسير الايات في ابن كثير ج٢ ص٥٥٥ ــ ٥٥٦ (مرجع سابق) .

(٤٢) الآية ٦٧ من سورة يونس .

(٤٣) الآية ٢٣ من سورة الروم .

(٤٤) سورة السجدة : الآيتان ٢٦ ــ ٢٧ .

(٤٥) سورة الأحقاف : ٢٦ .

(٤٦) ابن تيمية « درء تعارض العقل والنقل » ٣٦/٨ ــ ٣٧ طبعة جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض .

(٤٧) سورة الطور : ٣٥ .

(٤٨) الايات ٧١ ــ ٧٣ من سورة القصص . وتجد المقدمة الثانية «لا نظام بغير منظم» في فطرة الانسان وغريزته، وانظر ابن تيمية : «درء تعارض العقل والنقل ٨/ ٣٧ ــ ٣٨، (مرجع سابق)، تستفاد المقدمة الثالثة : لا أحد يستطيع أن يغير شيئا من نظام الكون .

(٤٩) ابن تيمية ، مجموعة الرسائل الكبرى ، الرسالة الثانية : معارج الوصول ج١ ص١٨٧ ط المطبعة الشرفية ١٣٢٤هـ لحسين شرف القاهرة . وانظر : عبد الرحمن النحلاوي : أعلام التربية في تاريخ الاسلام ، الحلقة ١ ابن تيمية . ط دار الفكر بدمشق ص٦٩ ــ ٧٣ .

(٥٠) الآيات من ٣٧ ــ ٤٠ من سورة يس .

(٥١) الآية ١٢ من سورة الاسراء .

(٥٢) الآية ٥ من سورة الرحمن .

(٥٣) الآية ٨ من سورة الرعد .

(٥٤) الآية ١٣٧ من سورة آل عمران .

(٥٥) سورة غافر : الآيات ٨٢ ــ ٨٥ .

(٥٦) سورة الأحزاب : ٦٢. وانظر سورة فاطر : ٤٣ وسورة الفتح ٢٣ حيث تكرر هذا المعنى .

(٥٧) سورة المؤمنون : ١١٥ ــ ١١٦ .

(٥٨) من سورة يونس : ٥ .

(٥٩) من سورة الروم : ٨ .

(٦٠) من سورة الملك الآية (٢) وانظر سورة هود : الآية (٧) حيث جعل الابتلاء من غايات خلق السماوات والأرض .